

محاضرات مقياس قضايا النقد الأدبي القديم

الأستاذة: فوزية سعيود

المستوى: سنة ثانية ماستر أدب قديم، الفوج: 01، السداسي الثالث.

المحاضرة الثانية: قضية الانتحال عند ابن سلام وقضية الانتحال عند الجاحظ.

أولا _ قضية الانتحال عند ابن سلام الجمحي:

تمهيد:

تعدّ قضية الانتحال من القضايا الكبرى التي شغلت النقاد العرب القدامى والمحدثين؛ وسنكتفي باستعراض جوانب هذه القضية معتمدين في ذلك على آراء ناقلين من نقاد العرب القدامى، هما: "أبو عبد الله محمد بن سلام" في كتابه "طبقات فحول الشعراء"، و"الجاحظ" في كتابه "الحيوان".

إن انتحال الشعر ليس مقصورا على العرب فقط بل تجاوزهم إلى غيرهم من الأمم القديمة، فقد نُحِل الشعر عند اليونان وعند الرومان من قبل، ولعل ذلك راجع إلى التشابه بين العرب واليونان والرومان، فهذه الأمم جميعها قد تحضرت بعد بداوة وخضعت حياتها الداخلية لظروف سياسية مختلفة، وانتهت إلى تكوين سياسي جعلها تتجاوز موطنها وتبسط سلطانها على الأرض. وعلى الإجمال فهناك عوامل جعلت العرب ينحلون على القدماء من شعرائهم، وأهم هذه العوامل:

1 _ العوامل السياسية:

فرضت الطبيعة في الجزيرة العربية في العصر الجاهلي نمطا معيناً من الحياة، وهي حياة تقوم في الغالب على الصراع على موارد الماء، مما جعل القبائل تعيش متنافرة في كثير من الأحيان تعتمد على السلب والإغارة وسيلة لحياتها. وليس من شك في أن أيام العرب الجاهلية كانت تصور جانبا من جوانب العلاقات القبلية، وكان الشعراء في العصر الجاهلي يعتمدون على ذكر مواقعهم في أيامهم فيفتخروا بها، ولذلك كان فن الهجاء من أشد

الفنون الشعرية وأفتكها يهدد بها الشاعر خصومه، وليس غريبا أن يتفاخر الناس في القبيلة إذا نبغ فيها شاعر، والعرب لم يسجلوا شعرهم في العصر الجاهلي، وكان الرواة ينقلون هذه الأشعار بين القبائل وبقي الأمر كذلك إلى أن جاء الرسول(صلى الله عليه وسلم) فألف بين القلوب، واخفت العصبية القبلية أو كادت وتحولت إلى عصبية دينية، وبدأ الشعراء يفخرون بنصرتهم للإسلام وتكونت بذلك وحدة سياسية إسلامية لها قوتها المادية. وقد أصبح في المدينة استعداد لمواجهة الكفار وأحست قريش أن الأمر تجاوز الأوثان إلى شيء آخر وهو محاولة المسلمين الهيمنة السياسية في الحجاز والاستيلاء على الطرق التجارية، فنشأت عداوة بين مكة والمدينة بعد هجرة الرسول(صلى الله عليه وسلم) ثم اصطبغت بالدم يوم انتصر الانصار في بدر ويوم انتصرت قريش في أحد وكان لابد أن يشترك الشعر في هذا الصراع فتهاجى شعراء قريش وشعراء الأنصار(المسلمين) وتفاخروا.

يحدثنا صاحب الأغاني « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرص على أن يشترك الشعراء في الصراع وأن جبريل عليه السلام كان يؤيد حسان بن ثابت»¹، واستطاع المسلمون أن يفتحوا مكة وأسلم "أبو سفيان" ومعه قريش وتمت الغلبة للمسلمين، وما إن توفي الرسول(صلى الله عليه وسلم) حتى عادت العصبية وعادت الأحقاد إلى الظهور واختلف المهاجرون من قريش والأنصار من الأوس والخزرج في الخلافة وأين تكون، وانتهى الخلاف بأن تنازل الأنصار وقبلوا أن تخرج الخلافة إلى قريش، وانصرف المسلمون إلى الفتوحات في عهد "أبي بكر الصديق" و"عمر بن الخطاب"(رضي الله عنهما) وكان عمر(رضي الله عنه) حازما؛ فقد نهى عن رواية الشعر الذي تهاجى به المسلمون والمشركون أيام النبي(صلى الله عليه وسلم)، ومع ذلك تحدثنا المصادر أن "حسان بن ثابت" وهو من الأنصار كان ينشد شعرا في مسجد النبي(ص) يفتخر بما قدمه الأنصار للإسلام، فأخذ عمر(رضي الله عنه) بأذنه وقال: "أرغاء كرغاء البعير؟".

ولما انتهت الخلافة إلى "عثمان" (رضي الله عنه) أحس "أبو سفيان" أن السيادة السياسية تقدمت خطوة أخرى، فلم تصبح الخلافة في قريش فحسب، بل أصبحت في بني أمية، واشتدت عصبية الأمويين واشتدت العصبية الأخرى. ويضاف إلى ذلك أن حركة الفتح الإسلامي هدأت وبدأ العرب يفرغ بعضهم لبعض، وكان من نتيجة ذلك أن قتل "عثمان" (رضي الله عنه) وافترق المسلمون، وانتهى الأمر إلى بني أمية، وعادت العصبية قوية فأخذ شعراء الأنصار يفتخرون بنصرتهم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ورد عليهم شعراء قريش، ورأينا الأمويين يسخرون الشعراء لهجاء الأنصار، فقد هجا "الأخطل" الأنصار ورد عليه "النعمان بن بشير" بقصيدة مطلعها:

**معاويَ إن تعطنا الحقّ نعرف
لحي الأزد مشدودا عليها العمائم**

وكانت القبائل العربية تحرص على أن يكون مجدها في الجاهلية رفيعا فأخذت تبحث عن أشعارها التي قيلت في الجاهلية فلم تجد الكثير منها لأن العرب لم تكن تسجل أشعارها، وكانت تعتمد على الرواة وكان أكثرهم قد مات في حروب الردة التي وقعت في عهد أبي بكر الصديق.

يقول "ابن سلام" في ذلك رواية عن "عمر بن الخطاب" (رضي الله عنه): «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب؛ فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، وحفظوا أقل ذلك وذهب منه أكثره».

كان على هذه القبائل أن تبحث عن أشعارها التي قيلت في الجاهلية لتقدمها وقودا للعصبية، فقالت من ذلك القصائد الطوال وغير الطوال. وقد تنبه "ابن سلام" لهذا الأمر فقال: « فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم. وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم».

ويحدثنا "ابن سلام" أن قريشا كانت أقل العرب شعرا في الجاهلية، فاضطرها ذلك إلى أن تكون أكثر العرب نحلا للشعر في الإسلام، يقول "ابن سلام": «وقد نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية فاستكثرت منه في الإسلام».

ويبدو أن العامل السياسي كان سببا في نحل الشعر على "حسان بن ثابت" الأنصاري فقد كان الأمويون وهم من قريش يحاربون الأنصار، يقول "ابن سلام" عن "حسان" في حديثه عن شعراء القرى: «وأشعرهم حسان بن ثابت وهو كثير الشعر جيده وقد حُمل عليه ما لم يحمل على أحد ووضعا عليه أشعارا كثيرة لا تليق به».

ولهذا فقد كانت العصبية القبلية وما يتصل من نواحي سياسية من أهم الأسباب التي جعلت العرب ينحلون الشعر للشعراء الجاهليين.

2 _ العامل الديني:

لم يكن العامل الديني أقل أثرا في نحل الشعر وإضافته إلى الجاهليين، فقد تطرق "طه حسين" إلى هذا العامل وبين أثره في نحل الشعر _ ولسنا بصدد مناقشة هذا الرأي هنا _ وما يهمننا في هذا الشأن هو رأي "ابن سلام" الذي يخبرنا أن القصاص حاولوا تفسير ما وجدوه مكتوبا في القرآن الكريم من أخبار الأمم البائدة كعاد وثمود، ويذكر الشعر الذي يضاف إلى (تُبَع) وإلى (حَمِير) وهو شعر منحول وضعه "ابن إسحاق" وأصحاب القصص. يقول "ابن سلام": «وكان ممن هجَّن الشعر وأفسده وحمل منه كل عداء محمد بن إسحاق مولى آل مخزومة لعبد المطلب بن عبد مناف وكان من أعلم الناس بالسير فقبل الناس عنه الأشعار وكان يفتني منها ويقول: لا علم لي بالشعر، إنما أوتي به فأحمله، ولم يكن ذلك له عذرا فكتب في السير من أشعار الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: قد حُمِّل هذا الشعر ومن أداه منذ ألوف السنين والله عز وجل يقول: ﴿وَأَنه أَهْلَكَ عَادَا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾، وقال في عاد: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾».

واضح من النص كيف أن "ابن سلام" أشار إلى وضع القصاصين شعرا يتحدث عن أمم بائدة، كما نستنتج من النص أن "ابن إسحاق" كان يعتمد على رواية يأتون له بالشعر

فيرويه، ويحاول "ابن سلام" أن يثبت أن هذا الشعر منحول على الشعراء الجاهليين بآيات قرآنية يكشف لنا بها أن الله أهلك عادا وثمود فما أبقى، فمن غير المعقول أن يصل إلينا شيء من أشعارهم. ومن يستعرض كتب الأقدمين يلاحظ أن كثيرا من الشعر قد نحل على الجاهليين حاولوا من خلاله تفسير بعض القصص القرآني. ومن الطريف أن نقرأ في بعض المصادر القديمة شعرا على لسان الجن، فعندما قرأ الرواة سورة الجن التي أنبأت أن الجن سمعت الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يتلو القرآن فلانت قلوبهم فأمنوا بالله ورسوله، فما كان من الرواة إلا أن صاغوا شعرا على لسان الجن، ومن ذلك أنهم رووا أشعارا قالتها الجن تفخر بقتل "سعد بن عبادة" سيد الأنصار، ومن هذا الشعر:

قد قتلنا سيد الخزرج

سعد بن عبادة

ورميناه بسهمين

فلم تخطئ فؤاده

ورروا شعرا قالتها الجن رثت فيه "عمر بن الخطاب" منه:

أبعد قتيل بالمدينة أظلمت

له الأرض تهتز العضاة بأسوق

جزى الله خيرا من إمام باركت

يد الله في ذاك الأديم الممزق

فمن يبيغ أو يركب جناحي نعامة

ليدرك ما حاولت بالأمس يُسبق